

أبو القاسم خلف الزهراوي

د. وائل محمود عيسى

٢٠٠٥/١٠/٠٥

من إنكار وتجني على حقبة من الزمن استغرقت ثمانية قرون، حيث زخر هذا التراث بالكثير من عناصر الابتكار والإبداع مما يجعل الكتابة عن الاكتشافات العلمية العربية ومساهمة هذه الابتكارات في بناء الحضارة الإنسانية وتطوير العلوم البشرية ذو أهمية كبيرة.

غلبت على الطب العربي والإسلامي عبر التاريخ النظرية اليونانية التي تُخضع الطب للفلسفة وتجعله جزءاً منها وعلماً من علومها، وبالتالي غلب الطابع الإنساني وسمو الأخلاق والإيثار والالتزام المهني على الأطباء العرب وممارستهم لمهنتهم.

ونظراً لحساسية هذه المهنة وتأثيرها الهائل على حياة البشر، ورفعة المجتمع، من خلال التراكمات التاريخية، وصل تنظيم مزاولة المهنة إلى ما هو عليه، مستنداً إلى مجموعة من القيم والمثل العليا بشكل يكفل حسن الأداء والحيلولة دون استغلال الإنسان وتغليب المهنة بإطار من التقاليد السامية.

إن الامتثال بالأطباء العرب والمسلمين وكذلك نخبة من الأطباء الأجانب عبر التاريخ والذين زجوا بأنفسهم في خضم تيارات متباينة من الأخطار يعتبر عاملاً مهماً يكسب المهنة وممارسيها ثقة المجتمع ويدفعها لتكون الأمل للمضعفاء والمرضى.



(شكل رقم ١ أطباء غربيون يطالعون مخطوطات الزهراوي)

بعد أن تجزأت الدولة العربية الإسلامية إلى دويلات، أعلن البيزنطيون حرباً شعواء عليها واستولى السلاجقة على بغداد، ثم توالى الحملات الصليبية للوصول إلى بيت المقدس، ثم هجمات المغول، والتتار. مما أدى إلى انهيارات متتالية كان من نتائجها تخریب الشرق الإسلامي، فنزح عنه سكانه من العلماء، والفلاسفة، والأطباء.

منذ ذلك الحين تحول مركز الإشعاع العلمي وما ينتج عنه من تقدم وتطوير وريادة تحول التقدم والتطور والريادة إلى المغرب العربي حيث إتسع العمران، وأنشأت المراكز والمدارس العلمية، مما أدى للحفاظ على التراث العلمي العربي والإسلامي وتطويره. هذا التراث الذي ارتكز عليه التطور العلمي في الغرب، خاصة في مجال الطب لا يمكن اعتباره صفحة من الماضي فقط لما في ذلك

تجسدت كل هذه المفاهيم والقيم من خلال ممارسات الأطباء العرب خاصة في المغرب العربي.

ومع أن الكثير من النظريات في مجال الطب العربي والإنسانية جمعاء فقدت أهميتها العلمية، وأن معظم النظريات في التشريح ووظائف الأعضاء، تجاوزها العلم الحديث إلا أن الكثير من الجوانب الأخرى لا تزال مهمة، حتى أننا نستطيع القول بكل أريحية أن الطب العربي الإسلامي كان حلقة أساسية في تطور الطب ضمن المسار التاريخي الحضاري والإنساني، وأنه لولا مساهماتهم لكان مستوى العلوم عامة والطب خاصة على شكل مختلف عن ما هو عليه اليوم من مستوى.

أبو القاسم الزهراوي (إمام أطباء العرب)

ضمن هذا الواقع العلمي المؤلم في الشرق العربي والمتقدم في المغرب العربي نشأ أبو القاسم خلف بن العباس الزهراوي الأندلسي.

ولد الزهراوي في ضواحي قرطبة، اختلف المؤرخون في تاريخ ميلاده ووفاته المرجحة عام ٤٢٧هـ - ١٠٣٦م، وهو طبيب جراح أطلق عليه الغربيون البوقاسيوسي أو أبو القسيس، صنّف كأعظم من نبغ في الجراحة بين العرب ومن اساطين أطباء الإسلام ومن أكبر أطباء العرب والعالم، حيث يعد الزهراوي فريد عصره، وضع الأسس التي استندت إليها صروح الجراحة الحديثة حيث جعلها تستند إلى علم التشريح الذي برع فيه وقام بنفسه بتشريح الجثث، وكان يؤكد باستمرار على أهميته كونه

(الأساس لعلم الجراحة وأن الجهل بالتشريح يجر الجراح إلى نتائج وخيمة).

رغم تميزه في الجراحة إلا أنه برع في علوم الطب عامة والصيدلة أيضاً فوضع أكبر موسوعة علمية ظهرت في المغرب العربي، جاء في دائرة المعارف البريطانية أنه (أشهر من ألف في الجراحة عند العرب، وأول من استعمل ربط الشرايين بخيط من حرير لوقف النزيف) . كما اهتم الرازي بطب الأسنان وجراحة الفكين ومعالجة كسورها ببراعة.

برع في استعمال الأدوات الجراحية السائدة وطورها، كما ابتكر الكثير منها ووصفها مع شرح لطرق استعمالها وقام برسمها حتى وصل عددها إلى أكثر من مائتين، منها آلة لاستخراج الجنين في حالة الولادة المستعصية، أول من استعمل القنطرة في غسيل المثانة وفي إزالة الدم من تجويف الصدر أو من الجروح وأول من استعمل السناتير في استئصال الزوائد (البوليب)، كما أجرى عمليات تفتيت الحصاة في المثانة. وأوقف النزيف بالكي.

من الآلات التي استعملها أو طورها أو ابتكرها.

- آلة كالمروود وطرفها كالمعلقة تملأ دواءً كاويًا لوضعه على اللهاة لكيها.
- آلة لاستخراج الشوك والحسك من الحلق.
- آلة لحفظ الصفاق: من خشب أو حديد تشبه ملعقة ليس لها تعبير وتوضع فوق

الأغشية المراد حفظها من القطع كي لا يغور الموضع بها.

- أنبوبة يدخل الطرف الرقيق منها الأذن بقدر الإمكان وتمتص السوائل بواسطة الطبيب منها.

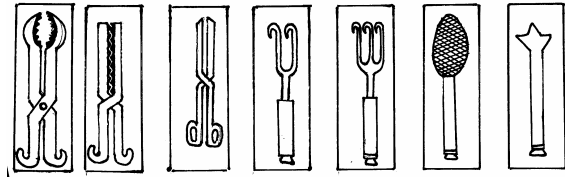
- عقلة تستعمل لرد العظام المكسورة الناتئة وتسويتها.

- جفت يستعمل لإخراج ما سقط في الأذن من أجسام غريبة.

- آلة تستعمل لاستخراج بقايا السن.

- سنارة لجذب الجنين وسنارة أخرى ذات شوكتين.

وغير من الآلات والمعدات التي طورها أبو القاسم الزهراوي (انظر الشكل رقم ٢ - ٣).



(شكل رقم ٢)

دعم الزهراوي كتاباته ونظرياته بما دلت عليه ممارسته العملية وتجاربه لذلك أعتبر نابغة زمانه ورائد فكر جديد رفع من شأن علم التشريح والجراحة وجعلها فرعاً طبياً خاصاً ذا مكانة كبيرة ومميزة بين فروع الطب. ولاشك أن من أشهر مؤلفاته:

الموسوعة الطبية، التصريف لمن عجز عن التأليف، وصفها البعض بأنها دائرة معارف، تقع في ثلاثين جزءاً مقسم إلى ثلاثة أجزاء الأول في الطب، والثاني في الجراحة والثالث في علم الأدوية المفردة والمركبة. ويعتبر الجزء الجراحي أفضل ما أنتج العرب في علوم

الطب، سماه البعض العمل باليد، ويقسم إلى ثلاثة أبواب الأول في الكي ويحتوي ٥٦ فصلاً والثاني في الشق والفصد ويحتوي ٩٦ فصلاً والثالث في تجبير كسور العظام، والفك، ويحتوي ٣٥ فصلاً. ترجم كتاب التصريف للغة اللاتينية خلال القرن الثالث عشر كما ترجمت بعض المقالات من كتاب التصريف، وأطلق عليها الكتاب النظري وأطلق على المقالة (٢٨) اسم كتاب التصريف، وكذلك المقالة (٣٠).

نقل عنه العديد من جراحي القرون الوسطى الغربيون العديد من آرائه وأساليبه الجراحية منهم.

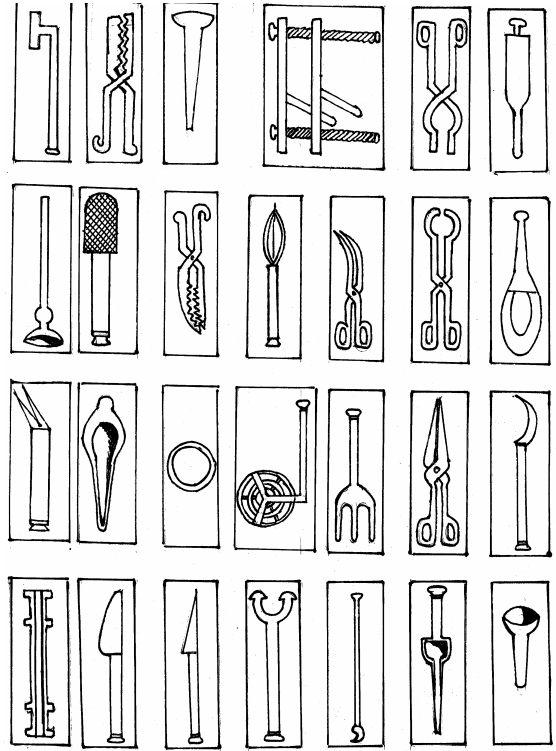
(غي ده شولباك) الفرنسي الذي يعتبر من أعظم جراحي القرن الرابع عشر الذي استشهد به أكثر من مئتي مرة في كتبه كما اقتبس ابن البيطار الكثير من المعلومات القيمة عنه.

توجد في الجزء الجراحي بمتحف دمشق نسخة عتيقة بخط أندلسي، سطر بها وصف للعمليات الجراحية بشكل مفصل كما بين المواد التي تصنع منها الأدوات.

ترجم الجزء الجراحي من هذا الكتاب أيضاً إلى اللاتينية والفرنسية، والعبرية إضافة إلى ترجمة غير كاملة لبعض الأجزاء الطبية نشرت سنة ١٥١٩ في أوغسبرغ، كما نشرت ترجمة الأقرابين سنة ١٤٠٣ في البندقية، وترجم دو شولباك الجزء الجراحي الذي نُشر عام ١٤٩٦.

ويعد الكتاب الذي نشر في أوغسبورغ سنة ١٧٧٧ ويحتوي على نصوص عربية وترجمتها اللاتينية أكمل ترجمة عثر عليها.

إضافة لذلك ترجمه لوكر ك LECLERK في باريس حيث سمي الترجمة (جراحة أبي القاسم). كما نشر بعض الأطباء الطليان مقتبسات عن الزهراوي وخاصة من كتاب السموم وتحديثوا عنها بإسهاب وشرح طويل. يعتبر الزهراوي أول من وصف مرض الناعور وصفاً دقيقاً (Hemophilia) وهو مرض يتصف بالنزعة الوراثية إلى النزف الدموي.



(شكل رقم ٣)

كما برع الزهراوي في فن التوليد وأمراض النساء، وتميز بأمراض المسالك البولية، ومعالجة كسور العظام، وهو من أوائل من استأصل اللوز، ووصف عملياتها بإسهاب، واستعمل أداة مميزة لهذه العملية، عالج بنجاح الإحليل العلوي، والسفلي، ووصف الحالات التي تمنع الإخصاب.

كان أول من وصف إجراء عملية الحصاة عند النساء، وامتنع عن إجراء عمليات الإخصاء لقناعته بحرمتها.

عمل على تصنيف الأورام إلى حميدة أو خبيثة أما الأورام الحميدة فتعالج بالاستئصال الجراحي، وأما الخبيثة فلا فائدة من علاجها إذا كانت متفرحة أو متقدمة (مر عليها مدة من الزمن) .

قسم الأورام الخبيثة إلى صغيرة أو مبتدئة ويمكن علاجها بالاستئصال، كما إلى أورام مرجلية تشبه العقرب الكثير الأرجل وإلى أورام صلبة أورام رخوة ولكنه أضاف بأنه لم يستطيع أن يشفي سرطاناً لا هو ولا معاصريه من الأطباء.

عالج الزهراوي الخراجات الكبدية بشقها مع كبتها في نفس الوقت، وغير ذلك من العمليات والابتكارات الرائعة في مجال الطب.

إذاً تعتبر كل مقالة من المقالات التي تتألف منها موسوعة الزهراوي (التصريف لم يعجز عن التأليف) كتاباً قائماً بذاته، المقالات الأولى والثانية والأخيرة تعنى بالطب والتشريح والجراحة بشكل خاص وبعض المقالات تعتبر أبحاث في الأدوية المفردة والمركبة، أوصافها، تأثيرها، حفظها، بدائلها، أوزانها وطرق تركيبها وتحضيرها. ضمت هذه الموسوعة أبحاثاً مبتكرة وأفكاراً جديدة في العلوم الصيدلانية، حيث صنف الزهراوي الأدوية بطريقتين:

الأولى شكلها الصيدلاني: حبوب، شرابات، مطبوخات.

الثانية تأثيرها الدوائي: أدوية قلبية - أدوية البأه - أدوية أمراض العيون - أدوية علل الصدر....

يقول الزهراوي في مقدمة المقالة (٢٨):

(لما جمعت هذا الكتاب العظيم الفائدة، الذي سميته التصريف في الأدوية المركبة، وأكملت جمع مقالاتي حسب معرفتي بها، وجدت في كثير منها، هي نسخ أدوية مركبة، أدوية ينبغي تهيئتها عند الحاجة إليها، وذلك مثل عمل العصارات وإحراق الأدوية وترتيبها، ومعرفة الجيد منها والرديء وما أشبه ذلك، ورأيت أن أجمع في هذه المقالة جميع ما يحتاج إليه من ذلك. ورتبت المقالة على ثلاثة أنواع).

الأول: تدبير الأحجار المعدنية.

الثاني: تدبير العقاقير النباتية.

الثالث: تدبير الأدوية الحيوانية.

ومع أن الزهراوي يعترف بفضل من سبقوه ويذكر فقرات كاملة من كتب جالينوس ودبوسفوريد، والرازي، واسحاق بن عمران، واقتبس من بعضهم إلا أنه كثيراً ما ذكر طرقاً أكثر تطوراً وأقل تعقيداً وترك للباحث حرية الاختيار، والمفاضلة.

استفاد الكثير من العلماء خاصة الأطباء الأندلسيين ممن ألفوا في علم الأقربازين (الأدوية) من كتاب التصريف، منهم الشريف الادريسي، ابن ميمون، ابن البيطار.

من المواضيع التي تضمنتها مقالات الزهراوي، السوفوفات، المراهم، إصلاح الأدوية، الأدوية المقينة، أدوية علل الصدرية، المراهم،

الأضمة، أدوية الفم والأسنان، الترياق، الأقراص، الحبوب المسهلة.

١- تشمل التدابير الفيزيائية تصويل، وغسل، وشي، وترتيب، وترشيح وحرق ومعالجة بالمواد العضوية للمركبات التالية:

مركبات الزئبق الكالسيوم، الحديد، النحاس، الزنك، الرصاص، الكلس، التونياء... الخ

٢- جمع الزهراوي أملاح كل معدن وفلزاته وتكلم عن كل منها وكتب عن طرق الحصول على مركباتها.

وله فيها ابتكارات وإضافات هامة مثل:

- وصفات استخراج: عصارة الخشخاش،

الماميثا، تقطير عسل العنصل لقتل

الفأر، وحفظ البصل من الإنبيات،

تبييض الخل والشراب، عمل ماء

الكافور بالتقطير.

- تركيب الأدوية المسهلة وإصلاحها،

خواص ومنافع كل منها (الحنظل -

حب النيل - العلقم - اللبلاب - حب

الرند - حب القرطم - لسان الثور -

الشاهنرج...)

- فائدة ومقادير وطريقة استعمال بعض

العقاقير النباتية مثل: البنفسج - التمر

هندي - ماء الخيار - الهلبخ الأصفر

والأسود... الخ

- تصفية وتكرير المياه المالحة أو

المكدر، تحفيص أو تعطير زيوت

الورد - النرجس - الحناء.

- تحضير بعض العقاقير مثل:

نقع الكمون في الخل، حك الصندل لتحضير مسحوقه - استخراج لعاب البذور، تجفيف الأزهار واللحاء، تجفيف بعض الحشائش.

٣- استعمل منظار الأذن وأيضاً محقناً لإدخال السوائل إليها.

٤- وصف طرق صنع قالب الأقراص الدوائية...

٥- استخراج رطوبة الحلزون، نزع رغووة العسل وطبخه، وتبييض شمع العسل، عمل النوشادر، إحراق النواتج الحيوانية وغسلها مثل الصدف، قشور البيض، العظام، قرون الإبل، السرطانات، العقارب، الأفاعي، تدبير الشحوم واختزانها.

قالوا عن الزهراوي:

ابن أبي اصبعية: قال عنه (أنه كان طبيباً فاضلاً جيد العلاج وله تصانيف كبيرة وأشهرها كتابه الكبير المعروف بالزهراوي، والذي أسماه التصريف لمن عجز عن التأليف، وقد بلغ من ذكر وانتشار هذا الكتاب أن طغت شهرته على شهرة كتاب القانون لابن سينا).

جاء في كتاب تاريخ الأدب في فرنسا، في أواخر القرن الثالث عشر ما يفيد بأن الكثير من الأطباء الطليان هاجروا من بلدهم إلى فرنسا بسبب الفتن الداخلية وحملوا معهم الكثير من مؤلفات الزهراوي ونصائحه وتعاليمه.

١- قال عنه هولنز: أنه أول من ربط الشرايين، ولعل استعماله وتطويره وابتكاره للأدوات الجراحية ووصفه لها وتزيين كتبه برسوم ومخططات لها يعتبر من أهم ما قدمه الزهراوي للعالم (أوردنا وصفاً ورسماً لبعض

الأدوات التي استعملها حيث أن المقام لا يتسع لسرد كل ما قدمه في هذا المجال).

٢- كما قال المقرئ فيه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع.

قال أكرنور زيجيرست عام ١٩٢٩: (من الخطأ الفاحش أن ينسب تقدم العلوم الطبية في بلاد الغرب إلى الأوروبيين إذ أن الواقع المعروف أن كل وصفات الغربيين في علاج الأمراض ترجع إلى كتاب أبي القاسم. وبينما كان الأوروبيون يمتنون الطب عن جهل وبصورة همجية كان العرب جادين في البحث في علوم ومعارف الأقدمين بحثاً دقيقاً وعلى أسس علمية سليمة.

وقد بلغ من حب العرب للعلوم والمعارف أنهم كانوا في حروبهم وغزواتهم يبادلون الكتب القديمة بالأسرى.

وهكذا تمكن علماء العرب من تأسيس نهضة رفعوا من خلالها شأن العلوم وخاصة الطب والجراحة بأساليبها المبتكرة، والتي ساهم الزهراوي بالقسط الأوفر في تطويرها وفي تطوير علوم الصيدلة.

ومما ساعد أبو القاسم في أبحاثه وأعماله أن قرطبة كانت مسقط رأس أبي القاسم تعج بالمستشفيات التي مورست بها طرق العلاج المختلفة خاصة العمليات الجراحية.

من ذلك كله نجد أن أبو القاسم أهدى الغرب أول كتاب في علم الجراحة، وظل هذا الكتاب يُدرس في أوروبا إلى القرن السابع عشر ولم يكن الأوروبيون قبل ما أدخله أبو القاسم على الطرق الجراحية من تطوير يستعملون سوى

الكي بالنار الذي أخذوه عن العرب أيضاً.
إضافة لبعض الطرق البدائية.

لذلك ذاعت شهرته في الشرق والغرب حتى أن
بعض الكاتدرائيات زُينت بصورته مع ابن سينا
والرازي مرسومة على الزجاج الملون
(مثل كاتدرائية ميلانو بإيطاليا).

مع أن ما ذكر في هذا المقال غيظ من فيض
من مساهمات الزهراوي إلا أننا نستطيع أن
نقول ليس أدل من الدور الذي قام به العرب
عامّة والزهراوي، وابن سينا، وابن الهيثم،
والرازي، وغيرهم في وضع أسس الطب
الحديث من اعتراف أطباء وعلماء الغرب في
أكثر من موقع بدور العرب وعلمائهم
(نحن مدينون للعرب بالعلوم والمعارف التي
تركوها لنا إرثاً طيباً).

المراجع:

- ١- د. إبراهيم بن مراد: نشرة الطب الإسلامي، العدد
الخامس، تونس ١٩٨٨.
- ٢- د. أحمد شوكت الشطي: تاريخ الطب، أعلام الطب
العربي في معجم هجائي، مديرية الكتب والمطبوعات
الجامعية، سوريا، حلب، ١٩٩٠.
- ٣- زهير البابا: الصيدلي أبو القاسم الزهراوي.
- ٤- شمس الدين محمد عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء،
مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٠.
- ٥- د. عامر النجار: تاريخ الطب في الدولة الإسلامية -
دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٧.
- ٦- د. علي عبد الله: اسهام العرب والمسلمين في الصيدلة
- مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨٥.
- ٧- د. فاضل أحمد الطائي: أعلام العرب في الكيمياء -
الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٦.

دكتوراه طب العيون

رئيس تحرير المجلة الطبية الفلسطينية

مدير عام تنمية القوى البشرية

Email: wnteissa@yahoo.com>